

من ذكريات الماضي

خطرات الشك في صدور الشباب

للمستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

قضيت صدر
النهار في غمول من
أثر البرد الذي نالني
وكدت آوى إلى
مضجى مريضاً ،
ولكننى طاردت
الضعف وتكلفت
القوة واشتغلت
ساعة مع زميل لي
فرنسي، ثم اشتغلت
من بعده وحدي .



وزارني بعد الظهر ثلاثة من أصدقائي المصريين فقطعتنا زمناً في الحديث والسمر ، وذهب عني شيء من الفتور فنهضت للخروج معهم . على أن الطقس كان ذا رطوبة وإن لم يكن كثير البرودة . وانصرف اثنان منهم وبقى ثالثهم معي فقال : إني سأحدثك بأمر عقيدتي لتعلم موطن القوة والضعف منها . أما الإيمان بالله فقد وصل عندي إلى حد الازداع الذي لا تزلله ريبة ؛ وأما الرسل فما أراهم إلا رجالاً من صفوة أممهم وهبوا أنفسهم كبيرة ، وعقولا راجحة ، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير ، ووضعوا لذلك قوانين هُدوا إليها كما يهتدي الحكماء إلى وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنساني أو إلى كشف ما خفي عن غيرهم من أسرار الكون

ولما رسخ في يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو الحق ، قالوا إنه من الله وسعوه وحياً ؛ وكأنا قولهم هذا من باب ثقة العالم بملكه ، ولكنه لا يجمل آراءهم وما جاءوا به بنجوة من تحييض البقول ، ولا يمنحهم من الثقة فوق ما يكون لإخوانهم الحكماء الصالحين في كل زمان

سمعت قوله كله بإصغاء تام ولم أقطع عليه الطريق في حديثه

ولا أظهرت له إنكاراً ، ولم يئسني عدوله عما أعتقد الحق من عدوله إليه ، ذلك بأنه يتكلم بروية ، ويعبر عما في نفسه ، ويدلي بالحجة القائمة عنده ؛ ومن كان هكذا عظم الرجاء في عرفانه للحق إذا سطع له برهانه

أخذت أولاً في اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعي فوجدته لا يخالف في شيء مما أثبتته الأديان لله وجعل أساساً للإيمان ، ثم انتقلت به إلى أمر الآخرة فقال إنه في شك منها ولم يمطها حظها من النظر . فقلت له إن الإيمان بالحياة الثانية ينبغي أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى الرسالة ؛ وبسطت له ما تهدي إليه الفطرة ويدركه بادي النظر من وجود دار جزاء ينال فيها المحسن ثواب إحسانه ، ويسأل فيها المسيء عن إساءته . ومن أيقن بأن الله حكيم لزمه بالبداهة أن يقر بأن الناس لم يخلقوا سدى — أحسنهم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون — عند ذلك قال إنه لا بد لي من فضل تفكير في هذا . وهبني أذعنت له فاذا تقول في المرسلين ؟ فقلت له ما عندي من أدلة الحاجة إلى الرسالة التي ينبغي أن تكون من عند الله ، لأن كثيراً من تعاليم الرسل لا يستقل العقل البشري بها . وقد جاء كل رسول ببينة تؤيد دعواه أنه مرسل من عند الله . وإليك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام وهي القرآن الكريم ، فهل ترى أن بشراً يقدر على مثله ؟ ونازعني في ماسقته إليه من الأدلة ونازعته ، حتى سكنت فسكت عنه ، وتركته إلى نفسه يمرض عليها أدلة المخالف ويراجع أدلتها هي . وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى فيكون الحق قد مهد لنفسه سبيلاً إلى قلبه . وإني وإياه لطلاب هدى . ولوددت أن يادر شبابنا يطلب اليقين إذا تلجلج الشك في صدورهم ، فإن ذلك أحرى بأن يقتلع الشبه قبل رسوخها . وفلان ... أمثلهم في هذا وإن كان يغلبه الشباب حيناً على الغضب لرأيه إذا شاء مجادله أن يظهر بالقلبة عليه «

هذه صورة من صور الحوار الذي كان يجري أحياناً بين شبانتنا طلاب العلم في أوروبا في صدر هذا القرن عند ما كانت تنسرب إلى نفوسهم الفضة نزعات الشك في العقائد ، وكانت نزعات الشك في العقائد يومئذ تشتعل في أوروبا اشتعالاً

وقد يكون في نشر هذه الصورة عبرة لشباب اليوم ولسنا ندرى كيف يفعل شباب اليوم حين تنسرب نزعات الشك إلى عقائدهم مصطفى عبد الرزاق